

كيف تعمر الأرض بالعابدين؟

رؤية في حرية التفكير والتقدم المدني

الفصل السادس من كتاب

مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد

الدكتور

محمد جلال القصاص

حال حديثه عن الفلسفة الإسلامية - أو الفلسفة القرآنية -، وحال حديثه - أيضاً - عن أن التفكير فريضة إسلامية، يتطرق العقاد إلى أن أي عقيدة، وخاصة العقيدة الإسلامية، لا تمنع حرية الفكر ولا تصد عن سبيل المعرفة والتقدم؛ وباستقراء ما قدّم العقاد تحت مسمى "الفلسفة الإسلامية" و "فرضية التفكير" نجد أنه يشير عددًا من القضايا، أهمها: قضية "التفكير" أو قل: "إعمال العقل"؛ وقضية "الجدال"؛ والثالثة: طلب العلم الحديث (المعرفة التقنية التي عند الغرب) كوسيلة من وسائل التقدم التقني (المدني)^(١). وأحاول في هذا الفصل تقديم مناقشة مختصرة لهذه القضايا بما يتفق مع محور الكتاب الرئيسي، وهو بيان مخالفة عباس العقاد في إسلامياته لما أعرف أنه صريح الكتاب والسنة وصحيح المعقول، وأنه لم يكن ضمن سياق التجديد الإسلامي بل قرأ الشريعة بمقولات المستشرقين، وقدمت ما عندي في هيئة سرد متواصل دون الدخول والخروج لنصوص العقاد كي تتضح الأفكار التي أواجه بها ما قدّم العقاد ورفاقه.

أولاً: التفكير أو إعمال العقل؛

يذكر عباس العقاد أن "القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبية إلى وجوب العمل به والرجوع إليه^(٢)!!، وبالتالي يقرر أن العقل يجب

(١) هذه القضايا تطرق إليها في عدد من كتبه، أهمهم كتاب "التفكير فريضة إسلامية"، وكتاب "الفلسفة القرآنية".

(٢) التفكير فريضة شرعية، ضمن المجلد الخامس من موسوعة عباس العقاد الإسلامية - طبعة دار الكتاب

العمل به والرجوع إليه، ويؤكد على هذا الادعاء كثيرًا؛ ومن أمثلة ذلك قوله: "الواقع المكرر في هذه المسألة بذاتها أن حرية العقل لا يقيدتها في الإسلام حكم مأثور على مذهب راجح أو على مذهب مرجوح"^(١). ويذكر أن موانع العقل ثلاثة: عبادة السلف^(٢) التي تسمى بالعرف؛ والافتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية؛ والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية. ويدور حينًا حول التحذير من هؤلاء الثلاث (الأعراف، والسلطة الدينية، والسلطة الدنيوية) على العقل، ويذكر أن أخطرها اتباع السلف، ويحكي إجماع من كتبوا في التاريخ على ذلك^(٣)!! ويقرر أن الإسلام يأمر العقل بأن يستقل في مواجهة السلف ومواجهة الأحرار ومواجهة الاستبداد!!

وما يحاوله العقاد هو إثبات استقلالية العقل في فهم النصوص الشرعية؛ وبالتالي يصبح العقل مرجعًا نأوي إليه - وجوبًا - حال التحدث في القضايا الشرعية!! والأمر ليس على إطلاقه، فليس بصحيح أن الشرع يأمر بالرجوع للعقل في كل شيء. ففي المسألة تفصيل على النحو التالي:

لبنان ص ٨٢٩.

(١) التفكير فريضة إسلامية ص ٨٧٠. وفي كتاب "الفلسفة القرآنية، ص ١٤ يدعي أن القرآن فقط كتاب عقيدة يخاطب الضمير، ويحث على التفكير ولا يتضمن حكمًا من الأحكام يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم، ما استطاع حيثما استطاع"

(٢) "عبادة السلف"، أو "عبادة الأسلاف" مصطلح شائع عند المشغولين بالأديان، ويقصد به تعظيم الأولين بنحت الأصنام على هيتهم أو شد الرحال إلى قبورهم وإقامة الأعياد حولها، وهي إحدى طرق الشيطان في تحريف الأديان، كما في قصة قوم نوح، عليه السلام.

(٣) ص ٨٤٩، وهو شبه إجماع (إجماع موارد) يصدره بكلمة "يكاد".

يعمل العقل في ثلاث مناطق:

الأولى: حال المخاطبة بالشرعية الإسلامية، وذلك حين نتحدث إلى من لم يؤمن أصلاً.. أولئك الذين ندعوهم للإسلام ابتداءً. والثانية: في المناط^(١)؛ والثالثة: في الدلالة والاستدلال.

حال الدعوة للإسلام، نكلم الناس بما يفهمون، نطلق من الثابت المشترك بيننا وبين من نتحدث إليه؛ فأهل الأديان نتكلم معهم في أمارات النبوة، وهي قاسم مشترك متعارف عليه، نبين أن النبي ﷺ أنبأ بغيب وجاء بمعجزات أماراً على اتصاله بمن يعلم السر وأخفى ومن هو على كل شيء قدير سبحانه وتعالى وعز وجل. ومع العقلانيين نبدأ من أدلة عقلية نبرهن بها على أن الله هو المعبود وحده. ونحدث الجميع عن الله وما أعد للمتقين وما توعد به العاصين.. نحرك في النفس الميثاق الأول الذي أخذه الله على بني آدم، ونستنفر الفطرة التي فطر الله الناس عليها^(٢).

ولذا التوحيد قسمان: مقدمة (سبب) ونتيجة. والتسمية تدل على ذلك:

(١) المناط عند العرب ما نيطَ (تعلق) به الشيء، يقال: هذا منوط به أي مُعلق به، والأنواط المعاليق. القاموس المحيط، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧)، ص ٨٩٢. وعند علماء الشريعة هو: "العلة التي نيط (تعلق) الحكم بها"، أو "العلة التي رتب الحكم عليها". شرح مختصر الروضة ٣/ ٢٣٣. والحكم الشرعي (التكليف الشرعي للفعل) يتعدد في ذات الشيء، فمثلاً فيما يتعلق بالنفاق: ليس كل أفعال النفاق تؤدي إلى الكفر بالله، وبالتالي ليست كل أحوال المنافقين كفر بالله، وإنما بعضها معصية، وبعضها كبيرة، وبعضها كفر أكبر مخرج من الملة، فهذه أحكام متعددة تتعلق بمناطات متعددة، والغائي منها (أقصاها) وهو هنا الكفر الأكبر المخرج من الملة.

(٢) يرتكز الخطاب الدعوي على تعريف الناس برهم، وما أعد لهم من ثواب وعقاب في الدنيا والآخرة.

- توحيد الألوهية، أو التوحيد العلمي الخبري، أو المعرفة والإثبات. قول القلب (الإدراك والتصور).

- وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو توحيد القصد والطلب. وهو عمل القلب (إرادته)، وعمل الجوارح، وتتفق مع ما في القلب من إرادة وجوداً وعدمًا، قوةً وضعفًا إلا أن يأتي مانع كما كراه ملجئ.

فجعل توحيد الربوبية والأسماء والصفات سبباً لتوحيد الألوهية، أو مقدمةً له. وهذا كثير في القرآن الكريم؛ من ذلك قول الله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة: ٢٥٥). بدأت الآية الكريمة بجملة خبرية تقريرية (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)....

لا معبود بحق إلا الله، أو لا يستحق العبادة إلا الله، ثم اتبعت هذه الجملة الكريمة بعدد من الجمل تبين سبب أحقية الله سبحانه وتعالى للتفرد بالعبادة، وكان سائلاً يسأل: لماذا؟! فأتت الآية بعدها تعلق هذا الخبر (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ)، (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)، (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)، (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

ومن ذلك، كذلك، قول الله تعالى: (قُلْ أَنتُمْ لَنَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت: ٩)، والمعنى أن من

خلق السموات والأرض في يومين لا يكفر به ولا ينبغي أن يُجعل له أندادًا.
ومثله قول الله تعالى: (رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ
دُونِهِ إِلَهًا) (الكهف: ١٤)، والمعنى لأنه ربنا رب السموات والأرض؛ لذلك
لن ندعو من دونه إلهًا.

والمنطقة الثانية التي يعمل فيها العقل هي المناط. أو المحل الذي يتنزل عليه
الحكم الشرعي، أو العلة المؤثرة في الحكم. مثالاً: الحركة الكثيرة تبطل
الصلاة.. هذا حكم شرعي لا يعمل فيه العقل، لا يقال: لماذا الحركة الكثيرة
تبطل الصلاة؟!، وإنما يعمل العقل في المناط.. في كون الحركة كثيرة أم لا؟!
هل تحركت كثيراً أم لم أتحرك كثيراً؟! وبالتالي تبطل صلاتي أم لا؟!
ومثالاً: خروج شيء من أحد السبيلين ينقض الوضوء.. هذا حكم شرعي لا
يعمل العقل فيه، وإنما يعمل العقل في تحقيق المناط: هل خرج شيء من أحد
السبيلين أم لا؟! وبالتالي نقض الوضوء أم لا؟!

ومثله: كل مسكر خمر، وكل خمر حرام^(١).. هذا حكم شرعي لا دخل للعقل
فيه، وإنما يعمل العقل في تحقيق المناط: هل شرب خمراً أم لا؟!
ومثله: حين نقول: حرم الله الزنا وأوجب الحد على من زنا. هذا حكم
شرعي لا يعمل العقل فيه. وإنما يعمل العقل في الحادث محل النظر ليتبين أهو
زنا أم دون ذلك!! وبالتالي هل يُحد أم لا؟! وما نوع الحد؟! رجم أم جلد
وتغريب؟!

(١) الحديث عند مسلم رقم ٣٧٣٣.

وما يتحدث عنه العقاد هو مناقشة الأحكام الشرعية، يفعل ما يفعله العلمانيون. وما فعله إبليس قبلهم. وذلك أن مناقشة الحكم تشكيك في المُشرِّع سبحانه وتعالى ذكره. ومن يناقش الحكم نخاطبه بالتوحيد من جديد.. نبين له أن الله هو العليم، الحكيم، الخالق، الرازق، القدير، ومن خلق ورزق وعلم كل شيء وقدر على كل شيء، واتصف بكل الكمال وجملة الجمال، قوله الحق وله الحكم.

ونبين له أن الله أرسل إلينا رسولا بلساننا ليبين لنا ما أَرَادَهُ منا، وقد كان. ونبين له أن العقل عاجز، وأنه إذا تعارض عقل إنسان مع صريح الشرع فالله أعلم وأحكم: (قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) (البقرة: ١٤٠)؟!

ومناقشة الحكم من جنس مناقشة إبليس لأمر الله تعالى له بالسجود، ولا يجدي التأويل في هذا؛ فإبليس كان متأولاً: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) (الأعراف: ١٢)، (قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (الإسراء: ٦١). عرض الحكم على عقله فما استقام عنده، لم ير أن الحكم منصف؛ لذارده وأبى الامتثال له، وكان متأولاً.. كانت له وجهة نظر، بلغة القوم. ولم يصرِّح إبليس بأنه يريد الكفر، بل رد الأمر متأولاً^(١).

والمنطقة الثالثة التي يعمل فيها العقل هي: الدليل والاستدلال؛ حيث يعمل العقل في طلب الدليل على الحكم، أو في الحكم على الدليل: هل هو صحيح أم غير صحيح؟، وذلك إن كان من أهل العلم؛ ويعمل في مدى دلالة الدليل على المراد منه، وفي الاستدلال به هل هو صحيح أم لا؟!

(١) انظر للكاتب: "التأويل أنواع" بالصفحة الخاصة في صيد الفوائد وطريق الإسلام.

تقول: الحركة الكثيرة تبطل الصلاة. فيجيب: ما دليلك؟! فتقول كذا. فيجيبك معارضاً بدليل آخر، أو ناقضاً للدلالة، أو ناقضاً لاستدلالك بالحديث معروضاً بعقلك أو بعلمك، أو معروضاً عنك ذاكراً لما يريد. وفي هذه المنطقة يظهر عامة الاختلاف بين أهل الفقه في تحقيق المناط، وفهم الدليل، وما يتعلق بالدلالة والاستدلال عموماً.

وعباس العقاد بعيد عن هذا كله، الذي يتكلم عنه العقاد هو الهوى، الذي يعمل في الدليل ليأتي به على هواه، يقول الله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُؤَلَّفُوا الْآلِئِبِ) (الزمر: ١٨)، "فأصحاب العقول هم أهل الدين الصحيح، وأهل الدين هم أصحاب العقول، ولهذا كان السلف لا يسمون المخالفين بالعقلانيين، بل كانوا يسمونهم بأهل الأهواء". وقد رأينا كيف يستدل عباس بالضعيف ويترك الصحيح، ورأينا كيف يركب الكذب وصولاً إلى ما يريد، وكيف أنه يأخذ النصارى بقولهم وهو يعلم أن القرآن الكريم يخطئهم في قولهم. وكيف يعرض عن قول من نصحوه بل ويعرض بهم. إنه الهوى وليس العقل أبداً.

الانفراد بالنص:

يسعى العقاد -والذين يوافقهم من المستشرقين- إلى إثبات استقلالية العقل (أي عقل) في فهمه لنصوص الشريعة دون الخضوع لفهم جيل الصحابة والتابعين. هذه هي القضية المحورية. يتحركون إليها من عدة طرق، بعضهم عن طريق التشكيك في السنة النبوية، وبعضهم عن طريق تقسيم السنة النبوية إلى تشريعية وغير تشريعية، وبعضهم عن طريق ذم الصحابة والتابعين ومن حمى الله بهم هذا الدين من الأئمة الأعلام المجددين؛ ويمكن التعبير عن هذه القضية بـ "الانفراد بالنص". ولذا علينا أن نطرح سؤالاً: ما هي دلالة النص؟

يطلق لفظ "النص" على منطوق الوحيين الكتاب والسنة الصحيحة. وهذا الأمر فيه نظر؛ إذ إن منطوق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يمكن بحال أن ينفصل عن سياق عام يشمل فعل النبي ﷺ وفعل الصحابة رضوان الله عليهم، أو قل: سبب نزول النص وكيفية امتثال النبي ﷺ وصحابته له. وذلك أن الرسول ﷺ لم يبلغنا فقط منطوق القرآن الكريم، الذي يقال له النص في عرف القوم، وإنما بلغنا القرآن ومراد الله من كلامه، وهذا هو معنى البلاغ المبين المذكور في سبعة مواضع من كتاب الله؛ قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ) (المائدة: ٩٢)، وقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ) (النحل: ٣٥)، وقال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ) (النحل: ٨٢)، وقال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ

الْمُؤْمِنِينَ) (النور: ٥٤)، وقال تعالى: (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُؤْمِنِينَ) (العنكبوت: ١٨)، وقال تعالى: (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُؤْمِنِينَ) (يس: ١٧)، وقال تعالى: (وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا أَلْبَلُغُ الْمُؤْمِنِينَ) (التغابن: ١٢).

والبلاغ المبين هو: الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها^(١)، أو هو الذي يُبين عن معناه لمن أبلغه^(٢)، ويفهمه من أُرسل إليه^(٣). بمعنى أن الرسول ﷺ لم يأتنا فقط بألفاظ القرآن، بل بألفاظ القرآن وبمراد الله من هذه الألفاظ. وبالتالي لم يتلق الصحابة رضوان الله عليهم منطوق آيات القرآن الكريم ثم ذهبوا يفهمونها كما شاءوا.. كلا، بل كانوا يتعلمون الإيمان ثم يضبطون ما فهموه بالقرآن الكريم كما جاء في الحديث عن جُنْدُبِ بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثم تعلمنا القرآن فازددا به إيماناً^(٤)؛ وجاء في مسند الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن^(٥) قال: حدثنا من كان يُقَرِّئُنَا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يَقْتَرِئُونَ

(١) السعدي عند تفسير الآية ١٧ من سورة يس.

(٢) الطبري عند تفسير الآية ٣٥ من سورة النحل.

(٣) راجع - إن شئت - تفسير الطبري للآية ٣٥ من سورة النحل.

(٤) الحديث في مقدمة سنن ابن ماجه، حديث رقم ٦٠، والحديث صحيح رجاله ثقات كما جاء في شرح السندي لسنن ابن ماجه. والفتيان الحزاوره هم من قاربوا البلوغ.

(٥) هو زيد بن خالد الجهني، توفي بالمدينة عام ٦٨هـ. والحديث في مسند الإمام أحمد برقم ٢٢٣٨٤. ولأبي عبد الرحمن السلمي التابعي المشهور حديث بنفس المعنى أحفظه ولكنني لم أستطع تخريجه لذا أمسكت عنه.

من رسول الله ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ.

والمراد: أن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا "نصاً" (منطوقاً) وتلقوا معنى، وهذا كله هو ما نحن ملزمون به - لكوننا تابعين لهؤلاء الكرام - قال تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء: ١١٥). وقال تعالى: (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة: ١٣٧). وبدهي أن الصحابة هم أحق من اتصف بوصف المؤمنين في هذه الآيات؛ ذلك أن الله عز وجل شهد لهم بالإيمان في آيات أخرى من كتابه^(١)؛ قال تعالى: (وَالسَّبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: ١٠٠). وقال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح: ١٨).

والخلاصة أنه لا بد من إعادة تعريف النص الشرعي على أنه: منطوق القرآن كما فهمه الصحابة، رضوان الله عليهم، وأقرهم عليه الرسول ﷺ، ولا يجوز لأحد أن يأخذ آية من كتاب الله ثم بعد ذلك يفهمها ويطبقها بغير الفهم والتطبيق الذي كان عليه صحابة النبي محمد ﷺ؛ إذ إنه من المعروف أن "العمل المتوارث المستمر من عصر الصحابة، رضي الله عنهم، فمن بعدهم حجة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية "٣/٤".

شرعية يجب اتباعها، وتلقيها بالقبول"^(١). فمن أراد أن يناقش النص فليناقشه في سياقه الكامل الذي يشمل دلالاته الشرعية المأخوذة من فعل الصحابة رضوان الله عليهم. أما القفز إلى النص (منطوق القرآن أو السنة) مباشرة وفهمه بمقدمات عقلية أو لغوية أو عرفية خاصة ببيئة المتكلم فهذا مما لا يقبل بحال. ومن فعل هذا نرده بأننا تلقينا وحيين؛ كتابًا وسنة، وقد كان هناك قوم شاهدوا رسول الله ﷺ وسمعوا منه ورأوا من أحواله وأفعاله ما يجعلهم أكثر الناس دراية بمراد الله من خطابه؛ فليس السامع الغائب كالسامع الشاهد، ومات رسوله ﷺ وهو راض عنهم، وفوق ذلك كله زكاهم خالقهم العليم الخبير سبحانه وتعالى ذكره، وأمرنا باتباع سبيلهم؛ كما مرّ بيانه أكثر من مرة في هذا البحث.

ولذا لا يصح التعامل مع منطوق القرآن والسنة بغير السياق العام الذي نزل فيه، أعني التطبيق العملي المتمثل في فعل الصحابة رضوان الله عليهم ومعهم إمامهم محمد ﷺ. وأضرب مثلاً أبين به قولي: آيات الحجاب، وهي مما يكثر حولها دندنة القوم، أعني قول الله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) (الأحزاب: ٥٣)، وقول الله تعالى: (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (الأحزاب: ٥٩)، وقول الله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب: ٣٣)، وقول الله تعالى: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) (النور: ٣١).

(١) حراسة الفضيلة للشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد عند الكلام على "المسألة الثالثة: أدلة فرض الحجاب على نساء المؤمنين".

ولا نستطيع أن نفهم هذه الآيات إلا من خلال السياق الذي نزلت فيه، وهو: المنافقون على نواصي الطرقات وبالأزقة يتحرشون بالسافرات من النساء- وهن الإيماء غالبًا- حين يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة؛ وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يطالب بضرب الستر بين الرجال والنساء كي لا يرى الرجال أبدانهن، وهن العفيفات الطاهرات أمهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن أجمعين، وكي لا يرى النساء أشخاص الرجال، وهم صحابة النبي الكرام، نزلت الآيات الكريمات في هذا السياق.. وقاية للنساء من المنافقين وستر كامل في مجتمع عفيف متعفف مجاهد لا يظهر في ترف ولا شبق. ونزلت الآيات فشق النساء مروطن وتخرمن بها⁽¹⁾، وأصبحن كالغرايب لا يُعرفن ولا يرى منهن شيء لا بوصف ولا بكشف، ولا تطمع فيهن عين ذي قلبٍ مريضٍ لزينة في الثياب أو زينة تسمع أو ترى من تحت الثياب، وقد فارقن بهذا الثياب الكافرات، فلم يكن الأمر اقتباسًا من عادات الجاهلية كما يدعي الكذبة من المثقفين اليوم، ولا سرقة من ثقافة اليهود، بل تشريع من رب العالمين للصادق الأمين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ومن المعلوم أن التشريع في الإسلام ارتبط بالأحداث؛ فلم ينزل القرآن جملة

(1) في ذلك عدة أحاديث عن أم المؤمنين عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، في البخاري ومسلم وفي سنن أبي داود وغيرهم. وانظر سبب نزول الآيات في ابن كثير والطبري والقرطبي. هذا ما اطلعت عليه.. وانظر ما ذكره الشيخ بكر أبو زيد- رحمه الله- فيما أورده من أدلة على الحجاب في كتابه القيم "حراسة الفضيلة".

واحدة، ولم يكن المراد من الوحي مجرد التلاوة والإقرار بما يحمله من أحكام دون الامتثال العملي، فكيف يؤخذ منطوق القرآن والسنة النبوية بمعزل عن ملاسبات أسباب النزول، وكيفية امتثال الصحابة للأمر والنهي؟!

ثانياً: الجدل والمرء:

أتى العقاد على السفسطة، والفلسفة في الحضارة اليونانية القديمة، وكيف أنها صارت إلى جدالٍ يضيع الوقت والجهد، ثم جاء إلى الإسلام وادعى أن الشريعة الإسلامية لم تحرم سوى الجدل العِقَامَ الذي لا يهدف لشيءٍ، يقول: "وكل ما ورد عن علماء الإسلام الذين حرموا الجدل فإنما ينصرف إلى منع هذه اللجاجة التي لمسوا شرورها وتحققوا من جريرتها ولم يلمسوا معها منفعة"^(١)، ويقول: "وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحداً منهم قصد بالمنع أو التحريم شيئاً غير هذا الجدل العِقَامِ، الذي يمزق وحدة الجماعة، ويصرف العقل عن الفهم، ويأتي إلى المعنى الواضح فيغمضه، ولا يتفق له يوماً أن يأتي للغامض فيجلوه ويقربه لمن خفي عليه"^(٢). ثم يمارس نوعاً من الحصر للقارئ؛ فيذكر أن اثنين من العلماء (الغزالي وابن تيمية) هما من تعرضا لقضية المنطق (المجادلة بالعقل)، وأنهما تعرضا لها للتصحيح والتنقيح وليس للرد^(٣)؛ مع أن كلاهما رفض منطق الفلاسفة، وحالهما - رحمهما الله رحمة واسعة - في رفض مسلك الفلاسفة مشهور.

(١) موسوعة عباس العقاد الإسلام - دار الكتاب - المجلد الخامس - بيروت ط. ١٩٧١ ص ٨٥٧ - ٨٥٩.

(٢) التفكير فريضة إسلامية ص ٨٥٨.

(٣) ص ٨٥٨، ٨٥٩.

والذي أفهمه أن تعرّض عبّاس العقّاد لقضية الجدل جاء من أجل الدلالة على تعظيم العقل، وقد سبق بيان أننا لا نفرّد العقل ولا نظرده، وإنما له مسار محدد يسير فيه، وذلك لأن العقل محدود الإمكانيات ومتنوع إلى حد التضاد. وأما ما يخص الجدل فالحقيقة أننا أمام طرفين ووسط: مرء وجدال وترك للحوار بالكلية.

المرء إفراطٌ. وترك الحوار بالكلية تفريطٌ. والوسط هو جدالٌ مشروط بأن يكون بالتي هي أحسن: (وَجِدْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: ١٢٥). والمرء نوعٌ خاص من الجدل، يزيد على طلب الحق، وفيه مشاحنة ومخاصمة بين الطرفين، يحاول كل واحد منهما أن ينزع ما بيد صاحبه^(١). والمرء حالة لا يراد فيها الحق، وإنما يراد فيها الغلبة على الخصم، تكون هناك نتائج، أو مفاهيم، مسبقّة يُقرأ النص من أجل الدلالة عليها.. أو يقرأ النص ليؤتى به شاهداً عليها. وقد نهينا عن المرء قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»^(٢). والحق واضح أبلج، ولا سبيل للمرء إلا باتباع المتشابه أو بافتعاله؛ إذ أن الكلام في المتشابه لا ينضبط، وخاصة إن قل العلم.

(١) يذكر صاحب مقاييس اللغة أن المرء يدور على أمرين: "مسح شيء واستدرار"، و"على صلابة في شيء". انظر: مقاييس اللغة، مادة مرئ "٥/٢٥٢".

(٢) أبو داود برقم ٤٨٠٢، وانظر: السلسلة الصحيحة "١/٢٧٢". وربض الجنة: أطرافها.

المحكم والمتشابه:

نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من حيث الأحكام وعدمه على ثلاثة أقسام: منها ما هو محكم حقيقي، ومنها ما هو متشابه حقيقي، ومنها ما هو محكم إضافي.. ويقال له أيضًا متشابه إضافي.

المحكم الحقيقي: هو الذي لا يحتاج لغيره لبيان معناه، وهو الغالب الأعم.. هو أم الكتاب كما قال منزل الكتاب، والله الحمد. والمتشابه الحقيقي: هو الذي لا يتضح معناه ولا بغيره، وهو قليل جدًا في القرآن الكريم، ولا ينبنى عليه حكم شرعي. فقط يُطلب فيه التسليم بأنه من عند الله. والمتشابه الإضافي أو المحكم الإضافي: هو الذي يحتاج لغيره لبيان معناه، مثل المطلق مع مقيده، والعام مع مخصصه، والمنسوخ مع ناسخه، وهكذا؛ فهو وحده متشابه، وحين ينضم إليه غيره يصير محكمًا. يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ٧). والمقصود أن الذين يمارون هم الذين يقفون في المتشابه الذي لا يتضح معناه، أو يفتعلونه من خلال المتشابه الإضافي، أو من خلال بتر للنص من سياقه القولي أو الفعلية، ثم تفسيره بمقدمات عقلية^(١).

والمقصود أن من يفعل هذا هم الذين في قلوبهم مرض، هم الذين في قلوبهم

(١) في كتاب "الكذاب اللئيم زكريا بطرس، أكثر من مائة صفحة فيها بيان كيف تتكون شبهات النصارى، وأمثلة من كذبهم، وهذه الأمثلة تصلح للاستشهاد بها هنا. وهذا كله من المحكم الإضافي.

زيغ، كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى. ويفعلون ذلك ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ والذين يتركون النقاش بالكلية هم أصحاب البدع العملية في الغالب، كالمتصوفة^(١)، لا يناقش.. يلوذ بالفرار من النقاش ويرمي في وجه من يتحدث إليه بجزء من حديث وابصة - رضي الله عنه -: «استفت قلبك وإن أفطوك».

فالشريعة تنهى عن المراء، وتسمح بجداولٍ بالتي هي أحسن، وتستدعي أهل العزلة إلى النقاش والحوار ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. والعقاد بعيد عن هذا؛ العقاد في وادٍ آخر، يتكلم عن أن المراء ممنوع ليقفز مباشرة إلى أن كل من كان ذا هدفٍ له أن يتكلم كيفما شاء، وأن يعمل عقله حيث شاء، يوطد لإباحة ما حرم الله بدعوى أنه الجدال "المشروع"، وإعمال العقل "المشروع" في الشريعة!!

ثالثاً: المعرفة والعمل .. رؤية في التقدم الحضاري^(٢)؛

من أهم أبواب الانحراف الفكري باب يتعلق بالأسئلة التي يطرحها المخالفون، كسؤالٍ عن الموقف من الديمقراطية، والموقف من الحريات الشخصية (بمفهومها الغربي)، والموقف من الدولة القومية، وكذلك ما ينبثق عن هذا السياق من أسئلة مثل سؤال النهضة بشقيه: لماذا تخلفنا؟ وكيف نتقدم؟

(١) احتار العقاد في تأصيل معنى الصوفية في كتابه "التفكير فريضة إسلامية"، وأتى على صوفة الذي كان يميز الناس بعرفة ومنى في الجاهلية، وكلامه متخبط، ولو يسع المقام لأفردت له نقاشاً خاصاً، وخير منه في هذه النقطة جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢) استفدت في هذا الجزء من الكتاب من بحثٍ منشورٍ بمجلات الأزهر العلمية لأختي الدكتورة إيناس جلال القصاص.

ويقصدون بالتخلف التخلف التقني، وبالتقدم التقدم التقني (المدنية)،.. وراء الغرب. وقد حاول كثيرون الإجابة على هذه الأسئلة من خلال سياق معرفي غربي لا من خلال النص المؤسس في ديننا والذي يشمل: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتطبيق العملي له والمتمثل في سيرة الرسول ﷺ، وأصحابه، رضوان الله عليهم^(١)، وما رسخه علماء الأمة في القرون الأولى من أصول للفهم والتطبيق في المجالات الشرعية المختلفة، كضبط القراءات، والحديث، وأصول الفقه، والفقه، واللغة، والبلاغة، والتاريخ، ثم العلوم الطبيعية، فهذه جميعها تمثل النص بمفهومه الشامل كما مر معنا في هذا الفصل^(٢).

ومن أهم ما يمكن ملاحظته في مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر الذي نشأ في كنف الاستعمار الغربي، أنه أخذ من الغربيين مفهوم المدنية كهدف في الحياة^(٣)، وطوّع مفاهيم الدين طلباً للمدنية بمفهومها الغربي، فأصبح مفهوم التخلف والتقدم يقاس بقدر ما تم تحصيله من مدنية غربية، ووقف كثير من المنشغلين بنهضة الأمة خجلًا يحاولون التبرؤ من التخلف المدني وتبرئة الإسلام منه، وادعاء ترحيب الإسلام بالتقدم المدني الغربي وقدرته على الانضمام إليه والمشاركة فيه، ومن هؤلاء عباس العقاد!

(١) يؤخذ فعل عموم الصحابة في المجال الاجتماعي والراشدين منهم في المجال السياسي.
 (٢) رصدت قبل صفحات قليلة أن من أسباب الانحراف الانفراد بالنص بعيداً عن التطبيق العملي للرسول ﷺ وصحابته والتابعين لهم بإحسان.
 (٣) أول من أدخل هذه البدعة هو "جمال الدين الأفغاني" نقلاً عن المفكر الفرنسي "فرانسوا غيزو ١٧٨٧-١٨٧٤" انظر: ألبرت حوراني، "الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩"، ترجمة كريم عزقول، (بيروت، دار النهار للنشر والتوزيع، د.ت)، ص ١٤٤.

وإنَّ للأُمور سِياقًا آخَرَ، خلاصته أن الدين جاء لتحقيق العبودية لله عز وجل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٢٥) وأننا إن عبدنا الله حق عبادته عمرت بنا الدنيا وجاء الفوز في الآخرة بما أعد الله من نعيم مقيم والنجاة مما توعد به العصيين من عذابٍ عظيمٍ، أليمٍ، مهينٍ. بمعنى أن العقيدة الإسلامية منظومة تعبدية تفرز مدنية خاصة بها. وأعرض عليك الآن بياناً نظرياً، مختصراً، مدعوماً بأمثلة عملية مختصرة أيضاً، أحاول بيان أن المنظومة العقدية الإسلامية تفرز مدنية خاصة بها، وأن المدنية الغربية التي نعيشها الآن لا يمكن أن تصل بنا إلى عمران حقيقي، وودت لو أني أفردت كتاباً خاصاً بهذا المبحث ولكني، لكثرة الشواغل، أطرح الفكرة هنا رجاء أن ينشط لها مَنْ مِنْ الله عليه بوقتٍ وجهدٍ وسعةٍ في العلم والفهم.. يعدل ويوسع. وأقدم ما عندي من خلال طرح سؤال عمارة الأرض ومحاولة الإجابة عليه، على النحو التالي^(١):

في القرآن الكريم ربط بين تحقيق الإيمان والتقوى من ناحية وعمارة الأرض من ناحية أخرى، مثل قول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة

(١) سيأتي السؤال في الصفحة التالية، ونصه: كيف تعمُرُ الأرضُ بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرض بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب العمارة، بل حقق عمراً ظاهرياً يراه الجميع؟!

الأعراف: الآية ٩٦)، وقول الله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (سورة نوح: الآيات ١٠ - ١٣)، وقوله تعالى: (وَأَلِّوْا أَسْتَفْتُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا) (سورة الجن: الآية ١٦). وآيات فيها ربط صريح بين المعصية والفساد (تخريب العمران)، مثل قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (سورة الروم: آية ٤١)، وقوله تعالى: (وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠). ولعل هذا يثير سؤالاً على هذا النحو: كيف تعمُر الأرض بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرض بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب العمارة، بل حقق عمراناً ظاهرياً يراه الجميع؟!!

أولاً: عمارة الأرض بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله:

كان بداية ذلك. ومنطلقه. من ترسيخ التأمل والتفكير ومحاولة الفهم والتفسير ومن ثم التعرف على المآلات (عواقب الأمور) كمنهج حياة^(١).

(١) والتدبر المذكور في هذه الأسطر، والمشروح فيما يليها من صفحات، هو التعقل والتفكير الذي يدعو إليه الإسلام لا تفكير أهل الأهواء الذي يجادل عنه العقاد، كما مر معنا في بداية هذا الفصل ونحن نتحدث عن المناطق التي يعمل فيها العقل، والفرق بينهما هو منهجية التفكير، وذلك أن عملية التفكير التي يطالب بها العلمانيون، وينتصر لها العقاد، تكون حرة.. كل يفكر حسب هواه وأوضح الأمثلة على ذلك مخرجات "علماء" الفلسفة في أمهات الأسئلة التي شغلوا بالإجابة عنها. حيث لا تكاد تجدهم متفقين على رأي واحد، فالعقول حين لا تنضبط بالشرع تتحرك مدفوعة بأمراض النفس ومعطيات الواقع وإكراهاته وطبيعة المعارف السائدة، وتكون النتيجة حالة من الحركة واسعة النطاق التي لا تكاد تتوقف كالسوائم، أو كما وصف الله (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَان) (الأنعام: من الآية ٧١)، بخلاف عملية التأمل والتفكير

وقبل المسلمين كانت عامة المعارف علومًا نظرية.. فلسفية بحتة. وما يعيننا هنا هو أن هذه النقلة الهائلة التي أحدثت طفرة كبيرة في العلوم التي أسست لعمارة ممتدة إنما جاءت من الالتزام بأمر الله ونهيه في كتابه وسنة رسوله ﷺ؛ وبيان ذلك في نقاط على هيئة عناوين جانبية، كالتالي:

التأمل منهج حياة:

في القرآن الكريم إجابة على الأسئلة الثلاثة الأهم في حياة الناس، وهي: من خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ؟، وماذا يراد منهم في هذه الحياة؟، ثم ماذا ينتظرهم بعد الوفاة؟؛ ومن خلال الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة يتم ربط العبد بربه في كل شيء، ربط مخلوقٍ بخالق، ربط فقير لا يملك شيئًا بغني مالك كل شيء؛ بمعنى ترسيخ الحقيقة الكبرى في هذه الحياة وهي محورية الله، (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۗ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (سورة هود: الآية ١٢٣). وواحدة من أهم الطرق التي يعلمنا الله إياها في كتابه للاهتمام إلى تفرد الكمال والعبادة التأمل (التدبر) في كل شيء وفي جميع الأحوال. التأمل (التدبر) في القرآن الكريم (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) (سورة ص: من الآية ٢٩)، والتأمل (التدبر) في آثار السابقين من نجا منهم ومن هلك (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (سورة محمد: من الآية ١٠)، والتأمل في ذات الإنسان: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (سورة الذاريات: الآية ٢١) وفي جميع الأحوال. فحينًا يأمر الله عباده

المنضبطة بالشرع، (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) فجعل أصحاب العقول السليمة هم المهتدون، ولعل الأمثلة المذكورة في الصفحات التالية تبين ذلك.

بالسير في الأرض من أجل النظر والتأمل (قل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) (سورة النمل: من الآية ٦٩)، وحيناً لا يكون أمراً بل حصّاً على السير والتأمل، (أَوْمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا) (سورة الروم: من الآية ٩) وحيناً لا يكون أمراً ولا حصّاً وإنما طلباً رقيقاً ممن يضرب في الأرض أن يتأمل حال سيره، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) (الأنعام: ١١). بمعنى أن الله العليم الحكيم، سبحانه، في كتابه الكريم دعا إلى إعمال الفكر في كل ما يرد على الإنسان فحتى الذين لا يستطيعون السير عليهم أيضاً أن يتأملوا في الأخبار التي تأتيهم ممن ساروا وشاهدوا، ويستنبط هذا من ختام هذه الآية الكريمة: (أَوْمَّ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَفَلَا يَسْمَعُونَ) (١)، وذكر السماع لينبه من لم يمش إلى أن يتأمل في الأخبار التي سمعها ممن مشى في مساكن السابقين ورأى كيف هلاكهم بعد أن عصوا رسل الله.

ويفهم من الدعوة للتأمل في كل شيء وفي جميع الأحوال، أن الله، سبحانه وتعالى، يُرْسِخُ التَّأْمَلَ مِنْهَجًا لِلْحَيَاةِ. بمعنى جعل التأمل حالة تتصف بها الشخصية المؤمنة بالله وما أنزل على رسوله. فليس للمؤمن أن لا يفكر فيما يعرض عليه. بمعنى صياغة شخصية يقظة تدقق النظر وتعمل الفكر فيما يرد عليها. وقد ظهر هذا جلياً في الصحابة رضوان الله عليهم، فأثمر تأملهم وتفكيرهم تساؤلات ظهرت كأنها اعتراض أو استشكال: في مكائد الحروب:

(١) سورة السجدة: الآية ٢٦.

(أمنزل أنزلك الله أم هي الحرب والمكيدة؟ ليس بمنزلٍ إذًا يا رسول الله) (١)، (رأي تراه لنا أم وحي أمرك الله به... ليس لهم عندنا إلا السيف) (٢)، وفي التشريعات: (أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها) (٣). بمعنى أنها كانت شخصية يقظة تمارس التفكير والنقد وتعبر عما في صدرها دون خجل. نعم هذا حالهم، وهم أطوع الناس، وهو سيد الناس، رسولٌ مؤيدٌ بالوحي من الله ﷻ ورضي الله عنهم.

وحين يترسخ التأمل في الشخصية المسلمة فإن الناس ينصرفون إلى ما يحسنون أو إلى ما يحبون، كل يتأمل فيما يحسنه أو فيما يحبه، وذلك أن الناس متخصصون بطبعهم، وهذا واضح من مواقف الصحابة، رضوان الله عليهم، فمن تحدث في تحديد أرض المعركة غير من تحدث في بيان شأن الأسرى، غير من أشار بحفر الخندق. كل موقف يستدعي الذين يفهمون فيه، ويحترم كل واحد إمكاناته الشخصية (تخصصه) فلا يتحدث فيما لا يعلم. وحين انتشر الدين تخصصوا أيضًا: فكان بعضهم في حلق العلم فقيهاً كزيد بن ثابت ومعاذ

(١) انظر: عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)، ج ١، ص ٦٢٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٣.

(٣) والحديث بتمامه عن أنس بن النضر رضي الله عنه: أن الربيع وهي ابنة النضر (أخته) كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم بالقصاص فقال أنس ابن النضر أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال (يا أنس كتاب الله القصاص) . فرضي القوم وعفوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) . انظر: الإمام البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، مرجع سابق، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، ج ٢، ص ٩٦١.

بن جبل وعبد الله بن عباس وأبي هريرة، وكان بعضهم في القتال يدير المعارك كأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد أو ينزل الأبطال كالحمزة بن عبد المطلب والزبير بن العوام، وكان بعضهم في السياسة والحكم كأبي بكر وعمر بن الخطاب، وكان بعضهم في قراءة القرآن وتعليمه كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وكان بعضهم في التجارة كعبد الرحمن بن عوف؛ ثم كان الأئمة بعد ذلك: فقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد، ومحدثين كالبخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة، ومؤرخين كابن إسحاق وابن هشام، وأدباء كالخليل بن أحمد، وعلماء في العلوم الطبيعية كالخوارزمي والبيروني.

والمقصود أن التدبر حالة. وصفٌ لازم للشخصية المسلمة. ويظهر في مجالات متعددة حسب ما يحسن الشخص أو ما يحب. وكان نتيجة ذلك أن بدأ المسلمون علومًا خاصة بهم، بل نستطيع أن نقول: بدأ مشروع حضاري متكامل في شتى المجالات انطلاقًا من مبدأ التأمل الذي رسخه الله، سبحانه وعز وجل، في كتابه. فأسس المسلمون علومًا نظرية لم تُعهد من قبل انطلاقًا من منظومتهم العقديّة، وخدمةً لمنظومتهم العقديّة؛ كعلم الرجال (ضبط السند)، والفقه (الأحكام التفصيلية)، ودونوا التاريخ، وانطلقوا للعلوم الطبيعية بأنواعها (الفلك، والرياضيات، والكيمياء،.. وغيرهم) من الحاجة الشرعية إلى هذه العلوم من ناحية^(١)، ومن منطلق التأمل الذي رسخه الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وهذا شديد الوضوح في جميع المجالات فقد سعوا لتعلم الرياضيات حين

(١) كان بداية الاهتمام بالفلك من أجل ضبط أوقات الصلاة.

انتشرت تجارتهم ووجدوا أن طريقة الحساب التقليدية لا تكفي لحساب عملياتهم التجارية، فكان أن نشط الخوارزمي في البحث عن "الصفر" وطريقة الآخر في الحساب، ونشطوا لتعلم الفلك لضبط وقت الصلاة، ونشطوا لتعلم الهندسة والرياضيات حين اتسع العمران وكثر الناس واحتيج لتشيد البيوت الكبيرة^(١)؛ ومن أوضح الشواهد على أن النص، بما رسخه من مبدأ التأمل والتفكير، يكفي لإنشاء عمارة (نهضة) حال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، وذلك بما أوجده من أوليات في مجالات شتى لم يسبق إليها، وبدهي أنه لم يتصل بغيره ليتعلم منه ويتدرب على يديه^(٢)، وعندى رؤية، لم تكتمل بعد، في أن معالجة التفاصيل انطلاقاً من الامتثال للأمر والنهي الشرعي أثمر كليات مجتمعية غاية في الفاعلية، والمثال الذي أدرسه الآن هو القيام بحقوق الضعفاء (حلب الشاة من أبي بكر ثم عمر) وتوزيع الغنائم والرواتب (الأعطيات) على المستحقين دون استثثار السلطة بالمال والنفوذ بدعوى أن "الدولة/ الخلافة" في حالة حرب مع القوى العظمى، وأشياء كثيرة مجتمعة جلها في فعل الراشدين.

نعم أفاد المسلمون من علوم غيرهم، ولكن، يجب أن نلاحظ أن هذه الإفادة جاءت على سياق، أو مشروع حضاري تأسس بدايةً من الكتاب والسنة، ثم تم انتقاء ما فيه فائدة لهذا المشروع مما هو موجود عند الآخرين، فالمسلمون لم

(١) انظر: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ج٧، ص١١٦.

(٢) انظر: غالب عبد الكافي القرشي، أوليات الفاروق في السياسة والإدارة والقضاء، (القاهرة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م).

يخضعوا خضوعاً أعمى قط لما جاءهم من علوم اليونانيين وإنما مارسوا النقد فراجعوا وصححوا وأخذوا ما يخدم مشروعهم^(١)، فكانت الإفادة من الأمم الأخرى في البدايات طفيفة جداً لا تكاد تذكر، وفي أمور فرعية تتعلق بتسيير شئون الحياة، مثل البريد، والعسس (التعرف على أخبار الناس ليلاً دون دراية منهم)، والدواوين (تسجيل أسماء الجنود ومن لهم الحق في رواتب منتظمة من الدولة) كان هذا في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي عهد التابعين أخذوا بعض ما استحسنوه من الفرس في إدارة شئون الحياة اليومية، مثل إسقاط الضرائب عن المزارعين، وإعطاؤهم البذور الجيدة دون مقابل؛ ولم نعرف أن غير المسلمين شاركوا في تأسيس الدولة في عهد الراشدين أو عهد التابعين وتابعيهم. وبدأ الاتصال الثقافي متأخراً في نهاية القرن الثاني من خلال الترجمة التي أنشأها ودعمها الخليفة العباسي المأمون (١٧٠هـ - ٢١٨هـ) (٧٨٦م - ٨٣٣م)، وكان هذا التواصل في علوم الفلسفة بالأساس^(٢). والمقصود أن الاتصال بالحضارات الأخرى جاء متأخراً (في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث)، بمعنى أنه جاء بعد التأسيس. وما نُقِلَ في العلوم التقنية نُقِلَ إلى سياق من البحث العلمي أنشأه المسلمون ووضعوا فيه ما تحصلوا عليه من علوم عند الآخرين، مع الأخذ في الاعتبار أن ما حصله المسلمون كان شيئاً مُهملاً.. وريقات

(١) ينظر: "علم الرياضيات في التاريخ الإسلامي"، لعبد الحليم عويس، موقع شبكة الألوكة، أخذ بتاريخ

٢٠٢١/١٢/٣١، من الرابط: <https://2u.pw/hJac3>

(٢) نص على ذلك عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته للتاريخ، حيث ذكر أن المسلمين لم يستفيدوا من علوم الفرس، وذكر، أيضاً، أن أول اتصال معرفي بعلوم الرومان كان في عهد العباسيين (القرن الثاني الهجري)، ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨/١٩٨٨م)، ج١، ص ٦٣١.

ممزقة.. معارف مبشرة.. قليلة.. ولولا أنها وُضعت في سياقٍ جادٍ ناهضٍ لما تطورت. فالحاصل أن المسلمين الأوائل نهضوا واستجلبوا آثار العلم المتواجدة عند غيرهم وطوروها، لا أنهم التحقوا بمراكز بحثية مشيدة وأمم قوية ناهضة وتعلموا منها ثم قلدوها كما يحدث الآن^(١). ومن يتتبع سيرة أوائل علماء الطبيعة المسلمين، كالخوارزمي والبيروني وابن سينا وابن الهيثم.. يرى بوضوح أنهم متأخرين عن فترة التأسيس والازدهار وأنهم أخذوا كتابات مهمة، وقاموا بتنقيحها وتطويرها، وأنهم لم يخالطوا أمما متقدمة تتلمذوا على أيدي علمائها^(٢)، وأزيد الأمر بيانا من خلال التعريج على بناء المدن- وهو مثال مشهور- في الأجيال الأولى من هذه الأمة.

بناء المدن:

من أوضح الأمثلة على ما سبق بيانه من طبيعة التواصل مع الأمم السابقة وخصوصية هذه الأمة، أو بالأحرى خصوصية كل منظومة عقديّة في إفراز واقعها الحضاري بما يتناسب معها، هندسة المعمار، حيث خرجت من عندنا في صيغة خاصة جداً عبارة عن أقواس ودوائر، وهي بهذا الشكل (الأقواس والدوائر) تترجم قيمة عليا عندنا، هذه القيمة هي محورية المسجد في قلب المدينة، كمحورية الكعبة لكل المسلمين.

(١) الالتحاق بالأمم القوية والتعلم عندها يورث المتعلم المنتج المعرفي (تقني، أو فلسفي) ومعه منهجية التعلم، أو خلفيات العلم العقديّة، ولذا يعود إلى قومه ويتحدث بأن نقطة البدء من تعديل النموذج المعرفي (العقيدة)، وهذا يحاولون فعله منذ قرنين أو يزيد.

(٢) ينظر: دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد الباشا، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤).

ارتكز المسلمون على المسجد بدايةً. يقومون ببنائه في أول يوم ينزلون فيه مكاناً ما، وبجواره السوق تسهيلاً على الناس في قضاء حوائجهم، بمعنى أن تكون الأغراض اليومية للبيت بجوار المسجد الذي يُؤتى إليه كل يوم خمس مرات، ثم يستديرون حول المسجد في حلق كما يفعلون حول الكعبة. من هنا جاءت فكرة جديدة للعمران (تعمير المدن)، في هيئة دوائر وأقواس، وأصبح الفن الإسلامي يتكئ على فكرة الدوائر في البنيان وفي تشييد المدن، وظهرت بركة هذا الأمر في نواحي عدة، منها: قرب الوصول لمركز المدينة من أطرافها، وعدم تمرکز الشمس في طول الشارع فلا يشق على من يسير فيه بخلاف السير طويلاً في الشوارع المستقيمة، وغير ذلك^(١)..

والمقصود: أن العمران (البنيان) جاء من قيمة أخرى.. العبودية.. جاء ثمرة لها.. نبت من الإلتزام بالنص الشرعي دون أن يكون هدفاً من البداية.

إتقان العمل والتخصصية والإبداع.

أسس المسلمون الأوائل علوماً جديدة في عددٍ من المجالات، مثل: الفقه، وأصوله، والسيرة والتاريخ، وعلم الرجال (المتعلق بعلم الحديث)، وطوروا علوماً قائمة كالعلوم الطبيعية (الرياضيات والهندسة والفلك..)، والأدب والبلاغة. وحين تدقق في ظاهرة تأسيس علوم جديدة وتطوير العلوم القائمة،

(١) انظر: هيام مهدي سلامة،جماليات الشكل الهندسي في الفن الإسلامي وتطبيقاتها المعاصرة، مجلة العمارة والفنون، العدد الثالث، صيف ٢٠١٦م، ص٣٠٧-٣٢١. ولمزيد من الأبحاث في هذا المضمون انظر- إن شئت- موقع مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، أخذ بتاريخ ٢٨ / ١١ / ٢٠٢١م، من الرابط:

حين تتأمل في هذه الطفرة العلمية التي قام بها جيل الصحابة والتابعون، وهم لم يتعلموا، من غير الكتاب والسنة تجد أن الأسباب الرئيسية أربعة: أولها: إتقان العمل، وثانيها: استفراغ الجهد وترك الكسل والدعة، وثالثها: المداومة، ورابعها: جعل التفاضل بالتقوى. فهذه الأربعة حين تجتمع تكون المحصلة شخصية جادة تعمل للإتقان (الإحسان في العمل) لا للشهرة ولا للأجر، شخصية تستفرغ وسعها فيما تفعله، وتستمر لا أنها تعمل حيناً وتقعده عن العمل أحياناً، حوّلت، هذه الأربعة، الإنسان من جاهلي يأتي المنكرات ما ظهر منها وما بطن إلى إنسانٍ أحدث أكبر تحولٍ وأزكى تحولٍ في تاريخ العمران البشري. وقد حثت الشريعة على إتقان العمل، وجعل الاتقان مقصوداً لذاته. وذلك فيما أخبرنا الله به من أنه، سبحانه وتعالى وعز وجل، مُطَّلِعٌ على عمل العامل، وأن عمل العامل معروض على الله يوم القيامة، يقول الله تعالى: (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)^(١). وفي حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"^(٢)؛ ومما يدل على أن الاتقان مقصود لذاته ما جاء في الحديث من الحث على تسوية القبر، يقول ﷺ: "أما إن هذا لا ينفع الميت ولا يضره، ولكن الله يحب من

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) انظر: الإمام البيهقي، شعب الإيمان، (الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، باب الأمانات وما يجب من أداؤها إلى أهلها، ج ٧، ص ٢٣٢. قال صاحب مجمع الزوائد، "رواه أبو يعلي وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة"، انظر، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بغية الرائد)، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ)، كتاب البيوع، باب نصح الأجير وإتقان العمل، ج ٤، ص ١٧٥.

العامل إذا عمل أن يحسن"^(١)، بمعنى أن الاتقان هدفاً للمحبين لله ورسوله الممثلين لأمره.

ومن الأدلة ردُّ عمل من لم يتقن، ودليل ذلك المسيء صلاته.. هذا الذي لم يتقن صلاته فأمره النبي ﷺ، بإعادتها^(٢).

ودليل الحث على الاستدامة ما جاء في الصحيحين: "إن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"^(٣)، وما جاء في وصف عمل رسول الله ﷺ بأنه كان ديمة، وفي رواية: "كان إذا عمل عملاً أثبته"، ويستدل على هذا المعنى (بذل الجهد قدر المستطاع، وعدم التراخي)، أيضاً، بما جاء في الحث على العمل وعدم اليأس كقوله تعالى: (وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (سورة يوسف: من الآية ٨٧)، وقول الله تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) (سورة الشرح: الآية ٧).

وأما جعل التقوى قيمة عليا فهو من أوضح الأمور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحال الصحابة رضوان الله عليهم، يقول الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ) (سورة الحجرات: من الآية ١٣)، ويجب أن نستحضر هنا أن التقوى قيمة خلقية وليست وظيفة أو مهنة، ما يعني أنها لا تُعيق أحداً من الاتجاه إلى ما يُحسن أو إلى ما يحب، فكلُّ يُنافسُ في تحصيل التقوى من حيث يحسن أو من

(١) المرجع السابق، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ج ٧، ص ٢٣٤.

(٢) انظر: الإمام البخاري، الصحيح، مرجع سابق، كتاب الآذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، ج ١، ص ١٥١.

(٣) المرجع السابق، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، ج ٥، ص ٢٢٠١.

حيث يحب، كما أن التقوى لا تتوقف على حسب أو نسب أو صفات جسدية، بمعنى أن الكل يستطيع تحصيلها.

فكانت المحصلة أن تفرق الناس كل إلى ما يحسن أو إلى ما يحب، وكان أن استفرغ كل واحد جهده فيما اتجه إليه، وأدام عمله، وأتقنه، فظهر الاتقان الذي هو التخصصية العالية (الإبداع) في شتى المجالات. وظهر سريعاً، فلم يكد يمضي نصف قرن من عمر البعثة المحمدية حتى ظهرت التخصصات المختلفة في المجتمع المسلم: الفقه، والسيرة والتاريخ، والقراءات، والحديث (علم الرجال.. الرواية، وعلم الدراية.. تفقد النص)، والأدب والشعر، ثم تابعت العلوم الطبيعية تبعاً لحاجة المسلمين إليها، فحين احتاجوا لضبط وقت الصلاة في البلدان الجديدة التي يختلف مناخها عن مناخ مكة والمدينة، كالشام وما بعدها من الدول اتجهوا للفلك فدرسوا ما عند غيرهم وزادوا فيه انطلاقاً من ثوابتهم وبحثاً عن كفاية لحاجتهم^(١).

والمقصود أن هذه التخصصية، وهذا الإبداع، جاء من امتهال لنصوص شرعية، ولم يكن مقصوداً لذاته. أو جاء من أشخاصٍ تم صياغتهم بنصوص شرعية بحتة.

القتلى في معارك الإسلام والقتلى في معارك الأمم الأخرى؛

كانت معارك الأمم الأخرى بمثابة كارثة تحل بأهل المنطقة التي يحدث فيها القتال، ليس فقط من تعرض المنطقة لإضعاف قدراتها المادية بسبب تمويل

(١) من أفضل من تحدث عن جهد المسلمين في العلوم التقنية الدكتور جورج صليب. له عديد من الكتب واللقاءات المتلفزة يتحدث فيها شارحاً ومدافعاً عند دور المسلمين في التقدم التقني. انظر: جورج صليباً، الفكر العربي: نشأته وتطوره، (لبنان، منشورات جامعة البلمند، ١٩٩٨م).

الجيش طوعاً أو كرهاً، وإنما كانت الكوارث تحل لسببٍ آخر، هو عدم دفن القتلى وترك الجثامين تتعفن، مما يؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض التي تفتك بأهالي المنطقة، وتكون المحصلة أن عدد من يموت بعد المعركة، من الأوبئة والأمراض، أضعاف من يموت في القتال المباشر حال المعركة. بخلاف المعارك الإسلامية التي لم تكن تسبب أي ضرر للمنطقة التي ينشب فيها القتال ولم يكن يُقتل في المعركة إلا من يُجهز عليه حال القتال. والسبب هو أن الفرد المسلم امثال لأمر رباني، هذا الأمر الرباني هو: التعجيل بدفن الميت (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) (سورة عبس: الآية ٢١)، فكان المسلمون يدفنون القتلى (منهم ومن غيرهم) يوماً بيوم.. امثالاً لأمر الله دون أن يُفتشوا في الحكمة الخفية وراء هذا الأمر.. فقط يمثلون للأمر كونه من الله العليم الحكيم، وبالتالي لا تتعفن الجثث ولا تنتشر الأمراض المعدية كما حدث في معارك الأمم الأخرى، فقد كانوا يتركون الجثث تتعفن وبالتالي تنتشر الأمراض في المنطقة فيصاب أهلها بالطاعون. فمعالجة هذا الأثر السيء للمعارك لم يأت بعد التعرف على خطورة ترك الجثث تتعفن، وإنما جاء بالتأديب بأدب رباني تم الالتزام به دون أن يُعرف سببه. بمعنى أن المقاتل المسلم وهو يُسارع لدفن القتلى بعد يوم طويل من القتال لم يفعل ذلك طلباً للعمران وإنما امثالاً لأمر الله وحدث العمران دون قصد.. جاء ثمرةً لامثال لأمر الله.

التكرار وصنع عادات الإنسان:

ذكر أهل التفسير وعلوم القرآن عددًا من فوائد التكرار في القرآن الكريم، منها: أن التكرار يفيد التقرير فإن الكلام إذا تكرر تقرر، ومنها: أن التكرار يفيد

التأكيد على معنى من المعاني، ومنها: أن التكرار وجه من وجوه الفصاحة فمع التكرار لا يحدث إخلال بالمعنى، وهذا يسمى عند البلغاء (اقتداراً)؛ ومنها أن عامة ما يبدو تكراراً لا يكون تكراراً حقيقياً وإنما حين ندقق النظر نجد فروقاً بين المعنى في ذات الآية أو في السياق^(١). وما سبق هو المشهور في أقوال المفسرين، وذكر الزركشي أن من أسباب التكرار أن "الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجراً، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد، وتبصرة لآخرين، وهم الحضور"^(٢). واجتهد العلماء في دفع التكرار، أو ما سمّاه بعضهم التشابه اللفظي، واشتهر من بين هؤلاء الإمام الرازي^(٣)

(١) محمود بن حمزة الكرماني، أسرار التكرار في القرآن الكريم المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، (القاهرة، دار الفضيلة، د.ت).

(٢) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٧م)، ج ٣، ٢٦.

(٣) من أشهر من عني بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم الإمام الرازي في تفسيره، فقد جمع أقوال السابقين له مثل: الإمام الكرماني، والإمام القفال، والإمام الواحدي، والزمخشري، وعبد القاهر النحوي، ونقل عنه المتأخرون من أمثال: الإمام ابن الزبير الثقفي في ملاك التأويل، والإمام ابن جماعة في كشف المعاني في متشابه المثاني، والإمام زكريا الأنصاري، في "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن"، ونقل عنه نفر من المعاصرين مثل الإمام الألوسي، والإمام الطاهر بن عاشور. انظر: ريم عبد الفتاح، الرازي وتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، أخذ بتاريخ ١١/٢٠٢١/٢٠٢١ <https://2u.pw/WkOr4:2021/12/11> ، وانظر: ريم عبد الفتاح، نظرات في منهج الإمام الرازي في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، أخذ بتاريخ ١١/٢٠٢١/٢٠٢١ <https://2u.pw/HMkKN> . وانظر: محمد راشد البركة، المتشابه اللفظي في

وكلامهم يَدْفَعُ التكرار في بعض المواقع دون بعضها. وسيأقهم الذي يتحركون فيه سياق دفاعي. وإن كثرة التكرار في القرآن الكريم تدل على فائدة كبرى أعتقد أنها تتعلق، فضلاً عما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن، ببناء عادات الإنسان، أو تشكيل السلوك الإنساني، وبيان ذلك كالتالي:

حديثاً، ومع تطور وسائل التواصل بين الناس، ومعها وسائل تلقي المعرفة بشتى أنواعها، بدأ الحديث عن أن سلوك الإنسان مصنوع، كله أو جله، حتى تجرأ أحد علماء الاجتماع المعاصرين (الدكتور علي الوردى) ووصف الإنسان بأنه بلا عقل و عنون كتاباً بعنوان (مهزلة العقل البشري) ، يحاول أن يقرر فكرة "الجبر البيئي" ، بمعنى أن الإنسان يجبر على أفعاله من البيئة التي يعيش فيها، يقول: كل ما يظهر على الإنسان من خير أو شر من أثر البيئة، ورفض -هو- أن يتسلم جائزة الدولة التقديرية، بدعوى أن ليس له فضل فيما حصل عليه من شهادات، يقول: إنما الفضل للبيئة وللظروف التي أعطته ولم تُعط غيره، ولا أدري: ألم يكن معه عشرات، بل مئات، في نفس البيئة وفشلوا، أو لم يكونوا مثله؟!، أم كان وحيداً طيلة حياته؟! فلو كانت البيئة هي التي تصنع وحدها لكان الكل سواسية.

ومن خلال كتابين "وعاظ السلاطين" و "مهزلة العقل البشري"^(١) حاول علي الوردى أن ينظر لمفهوم الحركة والتطور في اتجاه الحداثة الغربية، وطالب

القرآن الكريم وتوجيهه: دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية أصول الدين - الرياض، ١٤٢٥هـ.

(١) علي الوردى، وعاظ السلاطين، (لندن، دار كوفان للنشر، ١٩٩٥م)، وانظر: علي الوردى، مهزلة العقل البشري، (لندن، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٨م).

علماء الدين أن يستسلموا لهذا التطور بل وينظروا له. فهل حقًا يوجد ما يسمى جبر بيئي؟

وما ذهب إليه الدكتور علي الوردي سبقه إليه ابن خلدون في مقدمته، فيما سماه بـ "قوانين الاجتماع البشري" الذي يرى أنها حتمية في الحكم على الوقائع والأحداث، وأن البيئة تشكل تفاصيل الإنسان: لون بشرته، مزاجه، وكل شيء فيه.

وظهر مؤخرًا معارفٌ تجمعت تحت عنوان "بناء [صناعة] العادات". يحاولون صنع عادات الناس والتحكم في سلوكهم، وجعلهم كآلة بلا عقل إلا في حدود ضيقة جدًا، والوسيلة إلى ذلك هي التكرار. تكرار الطلب، تكرار المعلومة، صناعة النموذج (المثل) (القدوة) وتكرار عرضه. وبفعل التكرار تمت صناعة كثير مما يفعله الإنسان المعاصر!!

إنه من خلال التكرار تم التحكم فيما يأكل الفرد، ويشرب، ويلبس، ويسمع، ويشاهد، وفيما يتحدث فيه من موضوعات، بل وفيما يفكر فيه ويهتم به من قضايا. وبسبب امتلاك الناس لوسائل التواصل التكنولوجية الحديثة سهل صنع العادات حتى أصبح كثير من الناس على ما يقول علي الوردي: بلا عقل، أصبح الحديث عن أن للإنسان عقل مهزلة!! أصبح الإنسان المعاصر مصنوعًا بأفلام ومسرحيات وإعلانات وأغاني، ومناهج دراسية، ومتطلبات وظيفية حكومية.. إلخ.

وفي ضوء هذه العرض لواقعا المشاهد نستطيع أن نقرر أن من فوائد التكرار في القرآن الكريم صنع عادات الإنسان، ففي القرآن الكريم عددٌ محدودٌ من

القصص تمثل كل قصة نموذجًا محددًا من انحرافات البشر. ويحدث تكرار غير مُخل، ففي كل عرض إضافةً في مبنى القصة ذاتها، أو إضافة باعتبار السياق، أو تأكيدًا على معنى، وفي كل عرض إظهار لبيان بهي عطر عال منفرد أخاذ، وتكون المحصلة أن الذي يقرأ كتاب الله مرة كل أسبوعٍ (وهو حال عامة الصحابة^(١)) يمرُّ عشرات المرات على عدد محدودٍ من المفاهيم والقيم المركزية والقصص الهادفة التي تُثبَّت هذه المفاهيم، ويمرُّ عشرات المرات على النماذج المثالية لحزب الرحمن من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن اتبعهم بإحسان، ويمرُّ عشرات المرات، كذلك، على النماذج رؤس الشر وهم الشياطين ومن تبعهم. بمعنى: تُعرض القيم من خلال النماذج المثالية لها؛ ومن ثم يحدث تنميطًا للشخصية. ولذات الهدف تم توزيع الصلاة على النهار والليل، خمس صلوات في وقت النشاط وصلاة الوتر قبل النوم، وقيام الليل للمجتهدين الراغبين في الرقي، والأذكار قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، في مواعيد ثابتة تقريبًا. بمعنى يُستخدم التكرار في القصص والآيات والشعائر من أجل تنميط الإنسان.. من أجل صناعة إنسانٍ بمواصفات ربانية. فتكون النتيجة أن من يمثل لهذا البرنامج الرباني يكون حاله على ما وصف الله المؤمنين في كتابه (رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمُ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (سورة الفتح: من الآية ٢٩).

(١) يستفاد هذا من حديث وفد بني مالك من ثقيف حين سألوا الصحابة عن طريقة تحزيبهم للقرآن، للاطلاع على نص الحديث ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج ٢٦، ص ٨٩.

هذا حال النموذج المثالي (الصحابة رضي الله عنهم): كأن من ينظر إليهم في أي وقت يجدهم رحماء بينهم، ركعًا سجدًا، يتغون فضلًا من الله ورضوانًا.

أمثلة تبين أثر الكفر والعصيان في خراب العمران:

بعد عرض النصوص الشرعية التي تبين أن وجود المعصية يستلزم خراب العمران، أحاول تقديم نماذج عملية من واقعنا المشاهد تبين كيف تفسد الأرض، مع التقدم التقني والقدرة على التعمير التي وصل إليها الإنسان المعاصر في عديد من المجالات، حين لا يوجد إيمان.

وحاولت عرض عددٍ من الأمثلة تمثل جوانب الحياة المختلفة، فكان أولها ممثلًا للجانب الخلقي المتعلق بالشخص وسلوكه بين الناس، وهو ظهور الفاحشة (الزنا)، وثانيها يتعلق بالجانب النفسي المستتر عن عيون الناس فكان المثل بـ "الشح والبخل"، وثالثها يتعلق بالتعاملات المادية فكان المثل بتحريم الربا.

ظهور الفاحشة:

في الحديث: "يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن ونزل فيكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في

أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم" (١). وما ورد في نص هذا الحديث الشريف نشاهد تأويله في واقعنا المشاهد، فقد ظهرت الفاحشة وخاصة في المجتمعات الغربية، وعمل الناس بها، بل سنوا قوانين تحمي من يجاهر بها، فابتلاهم الله بالطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وكلما عالجوا مرضاً ظهرت فيهم أمراض أخرى أشد فتكاً. وذلك أنه مع تقدم تقنية تشخيص الأمراض، ومع تقدم صناعة الدواء، إلا أن الأمراض تسابق الطب وتسبقه، فمن الزهري، إلى السرطان مروراً بالإيدز. وفي التفاصيل نجد أن قدر الله يسير بين الناس بأسباب ظاهرة، فالميكروبات تمتلك خاصة تطوير ذاتها ضد الأدوية التي يصنعها المختصون، وبالتالي حالة من التسابق بين الميكروب والدواء، والميكروب يسبق، والحل في تجنب أسباب المرض بداية. وأسباب المرض كلها من مخالفة شرع الله، بمعنى أن الحل هو الاستقامة على منهج الله، بمعنى أن الفسق والفجور من الأسباب المباشرة للخراب.

الشح والبخل:

يعد "الشح" أحد الأمثلة على الصفات الذميمة التي تكون سبباً في خراب العمران، وقد ذكر في كتاب الله في ثلاثة مواضع: أولها: في بيان سبب استمرار الخصومة وعدم حدوث الصلح بين المتخاصمين، يقول الله تعالى: (وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء: من الآية ١٢٨)؛ وثانيها: في موضع النصرة والموالاتة بين المهاجرين

(١) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م)، كتاب الفتن والملاحم، ج ٤، ص ٥٨٢. وقال صحيح الإسناد.

والأنصار) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (سورة الحشر: من الآية ٩)؛ وفي موضع التذكير بتقوى الله وإنفاق المال في سبيله: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (سورة التغابن: من الآية ١٦).

وجاء في الحديث الشريف أن الشح سبب لهلاك الأمم يقول رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(١)، وفي رواية أحمد زيادة: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٢).

والشُّحُّ هو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، يقال هما يتشاحان على أمر إذا تنازعا لا يريد كل واحد منهما أن يفوته^(٣)، والشح أعم من البخل؛ لأن البخل يختص بمنع المال، والشح بكل شيء، والشح لازم (كامن في النفس) كالطبع، والبخل غير لازم، فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقى شره

(١) الإمام مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم)، (بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، د.ت)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ٤، ص ١٩٩٦.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، (القاهرة، دار الحديث، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ج ٦، ص ٣١٠.

(٣) محمد بن منظور، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مادة (شحح)، ج ٢، ص ٤٩٥.

وذلك هو المفلح^(١). وقد ذكر الماوردي في "أدب الدنيا والدين" أن الشح والبخل ذريعة إلى كل مَذَمَّة، وخاصة أخلاق أربعة، وهي: الحرص والشرة وسوء الظن ومنع الحقوق. فأما الحرص فهو شدة الكدح والإسراف في الطلب. وأما الشرة فهو استقلال الكافية والاستكثار لغيره حاجة. وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فإن كان بالخالق كان شكاً يؤول إلى ضلال وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختاناً وخواناً لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فإن وجد فيها خيراً ظنه في غيره وإن رأى فيها سوءاً اعتقده في الناس. وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها فلا تدعن لحق ولا تجيب إلى إنصاف. وإذا آل البخيل (أو الشحيح من باب أولي) إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول^(٢).

والمقصود أنه حين يضعف الإيمان تظهر الأخلاق السيئة (كالشح)، والذي يؤدي إلى القطيعة والفجور وسفك الدماء والظلم، وهذه كلها من التخريب في العمران المعنوي والمادي ولا ينفع معها حضور وفرقة من المال ورقي في الأدوات.

وإذا ما خرجنا من دائرة عصاة المسلمين إلى الدائرة الأوسع، أعني الذين لم يؤمنوا بالله وما أنزل على رسوله ﷺ نجد أن الشح تمكن منهم فأدى إلى، ليس

(١) الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ج ٩، ص ٥٠٨.

(٢) الإمام علي بن محمد بن محمد البصري (الماوردي)، أدب الدنيا والدين، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٤٢١هـ)، ص ١٩٩، ٢٠٠.

فقط الحرص والشره ومنع الحقوق على المستوى الشخصي، وإنما حدثت حالة من تعميم هذه الأخلاق السيئة (الحرص والشره ومنع الحقوق أو الظلم والبغي) فصارت أخلاقاً للدول والتجمعات البشرية (المجتمعات) فكانت النتيجة أن انتشر الفقر والجوع رغم أن أسباب الخير كثيرة، ومن الدراسات الغربية الجادة التي تبين أثر صفة الشح في ظهور الفقر والجوع على مستوى العالم، دراسة بعنوان "صناعة الجوع [خرافة الندرة]"^(١)، وفيه أمثلة لقلّة من الأغنياء تتعمد إهدار الثروة من أجل مزيد من الكسب، دون نظر لأضرار تسببها لكثير من الناس، فكانت النتيجة أن ازداد الفقير فقراً وازداد الغني غنى. ولذا رصد الدارسون ما سمّوه بـ "استراتيجيات صناعة الندرة" وذلك من أجل الحفاظ على أسعار السلع كما هي أو زيادتها، وضربوا المثل بما فعلته بعض الدول الكبرى من تخفيض حاد في إنتاج القمح للحفاظ على أسعاره، ومنع دول العالم الثالث من أن تنتج ما يكفيها من الغذاء، وكانت النتيجة، حسب هذه الدراسة، وجود أكثر من نصف مليار جائع! وكانت النتيجة، كذلك، أن ٣٪ من سكان العالم يتحكمون فيما يقارب ٧٧٪ من مساحة الأراضي الزراعية، وأن ما يزرع من مجمل الأراضي الزراعية لا يتجاوز ٤٤٪، بينما لا تصل النسبة في بلدان العالم الثالث إلى ٢٠؛ ومثّل القائمون بهذه الدراسة بأمثلة تفصيلية كثيرة، منها: انهيار سعر الأرز في وقت الحصاد كل عام، يحدث ذلك عمداً بفعل "كبار رجال السوق"، مما يضطر الفلاحون إلى بيع كميات كبيرة ليسدوا ديونهم

(١) انظر: فرانسيس مور لاييه و جوزيف كوليتز، صناعة الجوع (خرافة الندرة)، ترجمة أحمد حسان، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤م).

الربوية. وفي الكتاب أمثلة كثيرة تبين سيطرة قلة في الإنتاج والأسعار مما جعل المال دولة بين الأغنياء فزادوا غنى وتعدياً ولم يستفد كثيرون مما حدث من تطور تقني يحسبه بعضنا عمراناً، أو تعميراً في الأرض. بمعنى أن غياب الإيمان بالله وعدم التخلق بما أمرنا به أخلاقٍ حميدة أضاع فائدة التقنية الحديثة بل جعلها تعمل في اتجاه مضاد.. في اتجاه التخريب المادي أو المعنوي أو كلاهما، أو جعلها لا تفيد إلا قلة قليلة استذلت الناس واستعبدهم.

تحريم الربا؛

في صريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية أن التعامل بالربا يؤدي، حتماً، إلى نقصان المال وذهاب بركته، يقول الله تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (البقرة: ۲۷۶)، قال ابن كثير رحمه الله: يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي: يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة^(١). وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قَلَّةٍ»^(٢)، ونجد تأويل ذلك في واقعنا المشاهد فالربا أحد الأمثلة التي من خلالها يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن غياب الإيمان أدى إلى عدم حدوث عمران حقيقي، رغم وفرة المال، ورغم التطور التقني في مجال الخدمات المالية، ويتحدث خبراء الاقتصاد على أن

(١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)، ج ١، ص ٥٥٠.
(٢) سنن ابن ماجه، (بيروت، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م)، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ج ٣، ص ٣٨٢. وصححه السندي في حاشيته. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، (بيروت، دار الجيل، د. ت)، ج ٢، ص ٧٦٥.

إدارة المال على مبدأ الربا يؤدي إلى أضرار جسيمة تنتهي بخراب العمران، ومن أهم هذه الأضرار: ظهور خلل في توزيع الثروة والموارد الطبيعية، وذلك أن المرابي يربح دائماً، وبالتالي يزداد غني ويزداد المقرض (الفقير) فقراً؛ ومن آثار الربا فقدُ المال كثيراً من قيمته مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار (التضخم)؛ ومن آثاره عدم امتزاج عناصر الإنتاج، وذلك أن صاحب المال (المقرض) لا يدخل في عملية الإنتاج (التصنيع)، حيث أن دوره يقتصر على تقديم المال مع ضمان رأس المال والربح، ويتحمل المقرض مخاطر الإنتاج وحده وهذا من شأنه أن يقلل خبرات العمل (حيث يقتصر التعاطي مع التصنيع والتجارة على المقرض فقط دون الغني صاحب المال)؛ ومن آثار الربا الضارة التي أدت إلى تخريب العمران تحول المال (النقود) إلى سلعة، وظهور المتاجرة في الدين مما راكم الديون على الفرد العادي^(١).

والمقصود أن الانحراف عن الشريعة بإقامة المال على منظومة الربا أدى إلى خراب العمران رغم التقدم التقني في مجال المال، فحين حضر الكفر والعصيان ظهر الفساد في الأرض، كما قال الله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٢).

(١) ينظر: كمال توفيق خطاب، الربا والفائدة بين الفقه والاقتصاد، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، أخذ بتاريخ ٧/١٢/٢٠٢١ من الرابط: <https://2u.pw/4oPaE>
(٢) سورة الروم: الآية ٤١.

البيئة والإنسان المعاصر:

في العقود الأخيرة بدأ التنادي لحماية البيئة ضد المخاطر التي تتهددها^(١)، ويقصد بهذه المخاطر الاستنزاف الذي أصاب الموارد الطبيعية كالصمغ والبتروك والغاز الطبيعي والمعادن، والموارد المتجددة مثل: مصايد الأسماك والغابات والمراعي والأراضي الزراعية؛ وما أعقب كثرة الاستخدام من تلوث التربة الزراعية نتيجة الاستعمال الكثيف للمخصبات الزراعية والمبيدات الحشرية، وتلوث المجاري المائية (الأنهار والبحيرات)، وتلوث الهواء بالغازات الضارة المتصاعدة من المصانع؛ ويلحقون بذلك الزيادة المضطربة في عدد السكان والتي تمثل، حسب زعمهم، خطرًا على الموارد الطبيعية وتندر بمزيدٍ من النفايات والتلوث؛ وإن أخطر ما في مشاكل البيئة أنها لا تنحصر في منطقة دون غيرها، بمعنى أن إهمال بعض البشر يتضرر منه كثير منهم إن لم يكن جميعهم، ومثال ذلك مشكلتي ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض^(٢). ويهمنا هنا رصد أن أهم الحلول المقترحة تتجه إلى طبيعة بناء الفرد. من فرد مستهلك للموارد ومنتج للمخلفات إلى فرد مقتصد في تعاطيه مع الموارد وبالتالي مخرجاته من المخلفات بمختلف أنواعها^(٣). لذا نستطيع أن نقول أن

(١) كان أول نداء في ٢٢ إبريل ١٩٧٠م، واتخذ عيدًا، وسمي بـ "يوم الأرض" ويتضمن الآن فعاليات نظمتها عالميًا شبكة يوم الأرض في أكثر من ١٩٣ بلدًا حول العالم، ولهم موقع خاص على الشبكة

العنكبوتية هذا رابطته: [Earth Day: The Official Site | EARTHDAY.ORG](http://EarthDay:TheOfficialSite|EARTHDAY.ORG)

(٢) ترافس واجنر، البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث وآثاره، ترجمة: محمد صابر، (القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ١٩٩٧م).

(٣) زيد بن محمد الرماني، "على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟"، موقع شبكة الألوكة، قسم ثقافة ومعرفة، أخذ بتاريخ ١١/١٢/٢٠٢١، من الرابط: [على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟](http://www.alukah.net)

السبب في الأزمة البيئية التي تمر بالبشرية اليوم راجع إلى المناهج العلمانية التي أنتجت الإنسان المعاصر، أو المناهج التي حولت الإنسان من إنسان مقتصد ينافس في تحصيل المكارم إلى إنسان مستهلك، ينفق ماله في متع وملذات مؤقتة ولا يكاد يتوقف عن إفراز مخلفات تؤذي البيئة. ولا تتوقف المشكلة على أسباب الأزمة فقط، بل على الحلول التي يقترحونها، فمن ضمن الحلول التي يقترحونها التخلص من بعض البشر عن طريق نشر الأوبئة والأمراض، أو أنهم يرون أن بعض البشر عالة لا قيمة لهم^(١)، وهذه كارثة أخرى ترجع لغياب الإيمان بالله وأنه ضمن الرزق لعباده، يقول الله تعالى: (الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُوكَ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: ٢٦٨).

و "يعدكم" معناه يخوفكم "الفقر" أي بالفقر لئلا تنفقوا. فالشيطان يثبط الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها^(٢)، فالإنسان المعاصر الذي أنتجته مناهج العلمانية من ناحية يتسبب في حدوث الأضرار كونه استهلاكياً ولا يراقب رباً في تصرفاته ويحتاج إلى جهد كبير في ضبط سلوكه، ومن ناحية أخرى يقدم حلولاً أكثر ضرراً على أخيه الإنسان، والسبب غياب الإيمان بالله. فلا عمران بلا إيمان، ولا حاجة لنا في الجري وراء القوم بحثاً عن "تقدم" أخرنا وأخذنا بعيداً عن الحياة الطيبة التي

(١) هارولد. ف. دورن، "النمو السكاني في العالم معضلة دولية"، في: "التحركات السكانية في تاريخ أوروبا الحديث"، لهيربرت مولر، ترجمة شوفي جلال، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١)، ص ٢٢٨-٢٤٩.

(٢) الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، ج ٣، ص ٣٢٨.

وعد الله بها المؤمنين في الدنيا والآخرة، إن السعادة.. كل السعادة.. وإن الرقي..
وإن كل جميل في اتباع ما أنزل الله على رسوله ﷺ، يقول الله تعالى: (مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧).